قوله : (وإن محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى) .

ش : الإصطفاء والإجتباء والإرتضاء : متقارب المعنى واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته تعالى وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه وأن الخروج عنها أكمل فهو [من] أجهل الخلق وأضلهم قال تعالى : { وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون } إلى غير ذلك من الآيات وذكر ا نبيه A بإسم العبد في أشرف المقامات فقال في ذكر الإسراء : { سبحان الذي أسرى بعبده } وقال تعالى : { وأنه لما قام عبد ا يدعوه } وقال تعالى : { فأوحى إلى عبده ما أوحى } وقال تعالى : { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا } وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ولذلك [يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام - : اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر] فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته تعالى .

وقوله : وإن محمدا بكسر الهمزة عطفا على قوله : إن ا واحد لا شريك له لأن الكل معمول القول أعني : قوله نقول في توحيد ا .

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات وقرروا ذلك بطرق مضطربة والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك .

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوة النبوة ؟ وما أحسن ما قال حسان Bه : .

(لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر) .

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه - ما ظهر لمن له أدنى تمييز فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أمورا [يبين بها صدقه] والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده بل كل شخصين ادعيا أمرا : أحدهما صادق والآخر كاذب - لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين [عن النبي A أنه قال : عليكم

بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر [وإن] البر يهدي الى الجنة وما يزال الرجل يصدق [ويتحرى الصدق] حتى يكتب عند ا صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند ا كذابا]

ولهذا قال تعالى : { هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون } فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحيانا يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقا - فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء ولهذا لما [قال النبي A لابن صياد : قد خبأت لك خبأ فقال : [هو] الدخ] - [قال له النبي A : اخسأ فلن تعدو قدرك] يعني : إنما أنت كاهن وقد قال للنبي A : يأتيني صادق وكاذب وقال : أرى عرشا على الماء وذلك هو عرش الشيطان وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون والغاوي : الذي يتبع هواه وشهوته وإن كان ذلك مضرا له في العاقبة .

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله - علم علما يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن .

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعي للصناعات والمقالات كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ؟ ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة - : قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم ضروري كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه [وبغضه] وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهرعلى وجهه قد لا يمكن التعبيرعنها كما قال تعالى : { ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم } ثم قال : { ولتعرفنهم في لحن القول } وقد قيل : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها ا على صفات وجهه وفلتات لسانه فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعي أنه رسول ا كيف يخفى صدق هذا من كذبه ؟ وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة ؟ .

ولهذا [لما كانت خديجة Bها تعلم من النبي A أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي : إني قد خشيت على نفسي فقالت : كلا - وا لا يخزيك ا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق] فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه A أنه لم يكذب وإنما خاف أن يكون [قد] عرض له عارض سوء وهو المقام الثاني فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وقد علم من سنة ا أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة - : فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوا عليه : إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة ابن نوفل لما أخبره النبي A بما رآه وكان ورقة [قد] تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعربية فقالت له خديجة : أي : عم اسمح من ابن أخيك ما يقول فأخبره النبي A بما رأى فقال : هذا [هو] الناموس الذي كان يأتي موسى .

وكذلك هرقل ملك الروم فإن النبي A لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب من كان هناك من العرب وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام وسألهم عن أحوال النبي A فسأل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار سألهم : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقالوا : لا قال : هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فقالوا : لا وسألهم : أهو ذو نسب فيكم ؟ فقالوا : نعم وسألهم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ما جربنا عليه كذبا وسألهم : هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم ؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه ؟ وسألهم : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكروا أنهم يزيدون وسألهم : هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقالوا : ل ا وسألهم : هل قاتلتموه ؟ قالوا : نعم وسألهم عن الحرب بينهم وبينه ؟ فقالوا : يدال علينا مرة وندال عليه أخرى وسألهم : هل يغدر ؟ فذكروا أنه لا يغدر وسألهم : بماذا يأمركم ؟ فقالوا : يأمرنا أن نعبد ا وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وهذه أكثر من عشر مسائل ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الأدلة فقال : سألتكم هل كان في آبائه من ملك ؟ فقلتم : لا قلت : لو كان في آبائه [من] ملك لقلت : رجل يطلب ملك أبيه وسألتكم هل قال هذا القول [فيكم] أحد قبله ؟ فقلتم : لا فقلت : لو قال هذا القول أحد [قبله] لقلت : رجل أئتم بقول قيل قبله وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقلتم : لا فقلت : قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على ا تعالى وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم ؟ فقلتم : ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل يعني في أول أمرهم ثم قال : وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلتم بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم : لا وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشة القلوب لا يسخطه أحد .

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف .

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فقلتم : إنها دول وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها قال : وسألتكم هل يغدر ؟ فقلتم : لا وكذلك الرسل لا تغدر وهو لما كان عنده من علمه

بعادة الرسل وسنة ا فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون - علم أن هذه علامات الرسل وأن سنة ا في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر .

كما في الصحيح عن [النبي A أنه قال : والذي نفسي بيده لا يقضي ا للمؤمن قضاء إلا كان خير له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له] .

وا تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال : { ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين } الآيات وقال تعالى : { الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون } الآيات إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول .

قال : وسألتكم عما يأمر به ؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا ا ولا تشركوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي وقد كنت أعلم أن نبيا يبعث ولم أكن أظنه منكم ولوددت أني أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه وإن يكن ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضا وعداوة للنبي A قال أبو سفيان بن حرب : فقلت لأصحابي ونحن خروج لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه ليعظمه ملك بني الأصفر وما زلت موقنا بأن أمر النبي A سيظهر حتى أدخل ا علي الإسلام وأنا كاره .

ومما ينبغي أن يعرف : أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور قد لا يستقل بعضها به بل ما يحصل للإنسان - من شبع وري وشكر وفرح وغم - فأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر .

وكذلك العلم بخبر من الأخبار فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهي إلى العلم حتى يتزايد ويقوى وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك .

وأيضا : فإن ا سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة كثبوت الطوفان وإغراق فرعون وجنوده ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة : { إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم } .

وبالجملة : فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول إنه رسول ا وأن أقواما اتبعوهم وأن أقواما خالفوهم وأن ا نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب أعداءهم - : هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من

الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس و بطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه .

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم - علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة : منها : أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم ومنها : ما أحدثه ا لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذي حصل عليه - كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم - عرف صدق الرسل ومنها : أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل وأن فيما جاؤوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم - ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق .

ولذكر دلائل نبوة محمد A من المعجزات وبسطها موضع آخر وقد أفردها الناس بمصنفات كالبيهقي وغيره .

بل إنكار رسالته A طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبة له إلى الظلم والسفه تعالى ا عن ذلك علوا كبيرا بل جحد للرب بالكلية وإنكار .

وبيان ذلك : أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق بل ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفتري على ا ويتقول عليه ويستمر حتى يحلل ويحرم ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل [وهم] أهل الحق ويسبي نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض وينسب ذلك كله إلى أمر ا له به ومحبته له والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق وهو مستمر في الافتراء عيه ثلاثا وعشرين سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلي أمره ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ويهلك أعداءه ويرفع له ذكره هذا وهو عندهم في غاية الكذب والإفتراء والظلم فإنه لا أظلم ممن كذب على ا وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه واستمرت نصرته عليهم دائما وا تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين فيلزمهم أن يقولوا : لا صانع للعالم ولا مدبر ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله نكالا للصالحين إذ لا يليق [بالملوك] غير ذلك فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين ؟ ولا ريب أن ا [تعالى] قد رفع له ذكره وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الاشهاد في سائر البلاد ونحن لا ننكر أن كثيرا من الكذابين قام في الوجود وظهرت له شوكة ولكن لم يتم أمره ولم تطل مدته بل سلط ا عليه رسله وأتباعهم وقطعوا دابره واستأصلوه هذه سنة ا التي قد خلت من قبل حتى إن الكفار يعلمون ذلك قال تعالى : { أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين }

أفلا تراه يحبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه وقال تعالى : { أم يقولون افترى على ا كذبا فإن يشإ ا يختم على قلبك } وهنا انتهى جواب الشرط ثم أخبر خبرا جازما غير معلق : أنه يمحو الباطل ويحق الحق وقال تعالى : { وما قدروا ا حق قدره إذ قالوا ما أنزل ا على بشر من شيء } فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره .

وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول وأحسنها أن من نبأه ا بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الانبياء وغيرهم بل الامر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها وإرسال الرسل من أعظم نعم ا على خلقه وخصوصا محمد A كما قال [تعالى] : { لقد من ا على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } وقال تعالى : { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }